القسم السادس

obeikan.com

obeikan.com

الأناركية... وتقويض دور الدولة

- المصطلح

الأناركية والدولة مفهومان متعارضان، لا يلتقيان مطلقاً. إذ أن الأولى تعتبر الدولة مؤسسة عنيفة، لا بدّ من مقاومتها والوقوف لها بالمرصاد. بينما تنظر الدولة للأناركية باعتبارها حركة فوضوية خارجة على القانون ومتمردة على النظام.

ويعود المصطلح في أساسه إلى القرن التاسع عشر، من واقع الاضرابات العمالية وتصدي الدولة لها باستخدام إجراءاتها الأمنية والعقابية.

لكن استخدام المصطلح ومفهومه تطور في الأدب السياسي، ليشمل أي نشاط معارض للدولة، خارج السياقات المدنية والدستورية.

واليوم يتسع المفهوم لكل نشاط يتسم بالعنف أو استخدام السلاح.

وفي القاموس السياسي العربي ظهرت – خلال القرن الماضي – تعابير مختلفة لها ذات المعنى، منها: [مخربون، فوضويون، متمردون، عصاة، مغرّر بهم، غوغاء، إرهابيون].

هناك منظور آخر، من جانب التاريخ السياسي، يضع الأناركية في مقابل المونـاركية، معتبرًا أن الأولى تمثل حالة بدائية من ناحية الوعي والعجز عن التنظيم الاجتماعي السياسي، الذي لم يبلغ حدّ إدراك ضرورة الدولة، كمؤسسة تتولى تنظيم حياة الجماعة البشرية، وتحافظ على أمنها واستقرارها.

لذلك يمكن استخدام تعبير آخر، يلخص العلاقة بين الاثنين، هو المدنية.

فالمدنية مرحلة تاريخية في التطور الاجتماعي، تطورت فيها العلاقات العامة بين الأفراد أنفسهم، وبين الجماعات داخل المجتمع، بما يناسب انتماءهم

المشترك إلى مجتمع متنوع متعدد منفتح على نفسه وعلى الآخر، في إطار من التعاون المتبادل والمصلحة (الوطنية) المشتركة.

فالمدنية هي علامة حضارية فارقة بين مرحلة الجماعة البدائية (قبيلة يسودها التشابه ووحدة الأصل والرأي والانتماء)، وبين مجتمع يتكون من جماعات متعددة مختلفة الأصول والمعتقدات والانتماءات العرقية، يتشكل لديها بحكم التطور، انتماء أوسع يحلّ فيه الوطن محلّ القبيلة، والتعددية والاختلاف، بدل الوحدة والتشابه.

•

مرآة الواقع

الدولة في الفكر السياسي العربي، من المفاهيم الحديثة التي دخلت حياتنا مع بدايات القرن العشرين، وهو التاريخ الذي يعود إليه ظهور معظم الدول العربية المتعارفة حتى الآن.

ومن المآخذ النظرية على هذه الدول، أن ظهورها لم يأتِ في سياق التطور الاجتماعي التاريخي للجماعات العربية، وإنما ظاهرة خارجية مفروضة عليها بحكم الغزو الاستعماري عقب سقوط الإمبراطورية العثمانية.

والإشكالية الناتجة أثر ذلك، هو الفجوة الثقافية / الحضارية بين وعي الفرد / الجماعة المحلية، وبين مؤسسة الدولة كحاجة اجتماعية وضرورة سياسية.

ولذلك شهدت المرحلة الأولى من تشكيل الدولة العربية موجات متفاوتة من الرفض والعنف والمواقف التي تمَّ ترويضها – نسبيًا – عبر الزمن. ويمكن استقراء أمثلة، فيما يخص الموقف من التعليم – سيما للإناث –، والإصلاح الزراعي والأوقاف والأحوال الشخصية.

والمحصلة الموضوعية...

أنه لا يمكن القول ، بأن العرب بلغوا مرحلة التكافؤ بين الوعي الاجتماعي والوعي السياسي. بل أن الطابع القبلي والعرقي والطائفي والديني، ما يزال هو السمة العامة في الشرق الأوسط ، ولا زال مفهوم المواطن وشعور المواطنة بعيدًا عن المتحقق.

لا يزال انتماء الفرد وولاؤه للعشيرة والطائفة ، للغة والقومية والعرق ، للديانة والمذهب ، للزعامة المحلية ومراجع الدين ، أعمق وأولى من الانتماء والولاء للوطن وقادة الدولة وسيادة القانون.

وما تكشفت عنه الأوضاع في العراق عقب الاحتلال الأميركي ، لا يتمثل في سقوط نظام أو الانتقال من العلمانية إلى الدين أو تطبيع مظاهر الموت والدمار اليومي ، وإنما انحطاط وعي الفرد لمرحلة ما قبل الدولة... ومن شأن هكذا ارتداد حضاري، أن يستتبعه ارتداد اجتماعي وثقافي في مختلف المستويات...

•

أميركا... بلا منازع

في التاريخ السياسي العالمي، يتم التمييز بين عالم ما قبل الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، ويعتبر كلّ ما سبق في عداد الكلاسيكي والمندثر. ذلك العالم الذي لم يكن مضى عليه نصف قرن من هيمنة الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية.

شمل هذا التغير مستويات السياسة الدولية وظهور الجمعية العامة للأمم المتحدة (١٩٤٧) بدلاً من عصبة الأمم الملغاة، وتمثل في ظهور مجموعة العالم الثالث ، وما شهدته من موجة انقلابات عسكرية، قوّضت الأنظمة السابقة لها – ملكية كانت أو جمهورية –، تغيّر معها الخطاب السياسي العربي، الرسمي والشعبي ، والثقافي والديني، عن السابق.

الانقلابات العالمثالثية التي أشرفت عليها أصابع المخابرات المركزية الأميركية كانت محاولة ترقيعية، في عالم، كان وجود القطبية الثانية (الحرب الباردة)، يضطرها للتحفظ والمراعاة، في مدّ نفوذها العالمي.

ولكن منذ العام (١٩٨٩م) واستفرادها بقياد العالم، انتقلت من التحفظ إلى التدخل السياسي المباشر – استخدام كلّ إمكانياتها بضمنها العسكرية –. وكان العراق باكورة عملياتها، وبنجاح ساحق.

وقبل أن تمرّ عشر سنوات على التجربة الأميركية في العراق، ظهر ما دعي بثورات الربيع العربي الشعبية، والتي لا تبتعد كثيرًا عن ثورة الشارع الإيراني ضد نظام الشاه (١٩٧٨م).

ثورة شعبية عارمة – دعم خارجي – صعود الإسلام السياسي للحكم.

ولعلّ البعض هنا يعترض أو يتساءل: هل كان الخميني متواطئًا مع الإدارة الأميركية؟... يمكن أيضًا ولتطوير الحوار، عكس اتجاه السؤال؟...

والدليل الذي سوف يحتج به المتسائل أو المعترض، هو حادث السفارة الأميركية، باكورة عمليات الانقلاب !... لكن هذا دليل مزدوج !...

أن الذي يكذب، يضطر للقَسَم كثيرا.
أما الذي لا يكذب، فلا يرى ضرورة للقَسَم !.

•

ربيع عربي...

ثمة ملاحظات ثلاثة، تكشّفّ عنها مشهد التغيرات السياسية الأخيرة...
ثورات شعبية
صعود الإسلام السياسي
تراجع دور الدولة !.

فالاتهام الرئيس الموجه لأداء محمد مرسي هو عدم قيامه – هو أو حكومته (رئيس الوزراء هشام قنديل) – بمسؤولياتهم السياسية والحكومية. [رئيس الوزراء برَّر ضحايا خلل وتهاون في أجهزة المواصلات بأنه قضاء وقدر ! ، قارن ذلك بمثيلاتها في اسبانيا أو الهند أو فرنسا].

بالمقابل ، يقتضي المقارنة مع أداء – ما يدعى – الحكومة العراقية واستغراقها في لغو وخطب ومشاريع ومقترحات – على صعيد الحكومة والبرلمان – دون انجازات حقيقية على صعيد العمل بما يلبي احتياجات الناس وحل مشاكلهم المستعصية ، – بما فيها أزمات الكهرباء والبطالة والقضايا الأمنية –.

فالدولة العراقية اليوم لا تكاد تعادل غير أقل القليل من مظاهر الدولة في مراحلها الأولى في العهد الملكي ، سواء في تنفذ رجال الدين والعشائر في البلاد ، أو خضوع الدوائر والمؤسسات والوظائف العامة للمحاصصات الطائفية – بدل الكفاءات الإدارية –، والإلغاء التام لمعايير الوطنية والإخلاص والخدمة.

ونظرا للعمر القصير للدولة العربية – وظروف ولادتها القيصرية –، لم تتبلور مؤسسات رسمية رصينة لها تقاليدها واستقلاليتها الذاتية ، فإن تقويض المؤسسة العسكرية ، يشكِّل بداية تقويض الدولة من الداخل. فالعسكري لا يمثل الدولة فحسب ، وإنما ، هو رمز للقانون والنظام ، الأمر الملاحظ في بلاد الغرب.

أما في العراق ، فقدْ فقَدَ عسكري المرور احترامه في عيون الناس ، ولم تعد إشارة يده المرورية تستوجب الالتزام في الشارع. الجنود والشرطة هم موضع نكتة وسخرية ، وأدوات للرشوة والفساد ، قبل كلّ شيء. ومن وقت لآخر... تنجح عمليات تهريب أعداد من السجناء من سجون بغداد (أبي غريب) وسواها، مما يدخل في باب فقدان العسكري لقيمته الحقيقية ، الذي يقابل فقدان الدولة لأهميتها واحترامها عمومًا.

وباعتبار أولوية اللغة في الخطاب العربي ، نلحظ ظهور مصطلحات غريبة تتقدم الظواهر ، منها تعبير (بلطجية) في مصر ، أو (شبّيحة) في سوريا ، لوصف فريق الحكومة. ، (سوات) في العراق ، إلى جانب المليشيات الشيعية المتعددة الرؤوس.

ويتم توظيف جماعات الإسلام السياسي ، والفئات المعدمة أو الساذجة من قاعدة المجتمع وبعض المرتزقة أدوات في تحطيم الأرصفة وأعمدة النور وإشارات المرور والأبنية العامة وكلّ مظاهر المدنية... وصولاً لتحقيق صورة غياب خدمات الدولة الاجتماعية والاقتصادية والأمنية... وتحويل البلد إلى – أرض مفتوحة– يدخلها الناس من البلدان المجاورة ويخرجون بدون رقيب !... هذا ما حصل في العراق... وهذا ما يحصل في مصر ،عبر حدودها مع غزة وسيناء أو الحدود الليبية.

وأخيرًا...

إن القوات المسلحة التي كانت الأداة المفضلة لدى الإدارة الأميركية لتنفيذ أغراضها قبل نصف قرن ، صارت اليوم أول ضحاياها وأعدائها ، تمهيدًا... لتقويض دور الدولة والزعامة العربية !.

علم نفس المستهلك

هو أحد متطلبات فن الإعلان ، والأخير هو أحد مراحل لأزمة في علم التسويق.

يشتمل علم نفس المستهلك على مدارس واتجاهات مختلفة ، سواء في التعريف العلمي للمصطلح أو أساليبه واتجاهاته ومدياتها. وهو على العموم من العلوم الحديثة ، ومسائل التفاوت الحضاري بين الغرب والشرق والجنوب.

تعود بداية علم السوق لبدايات مبكرة في أيام الرومان ، ولكن تطورها وتقعيدها الأكاديمي ، اقترن بمرحلة ما بعد الثورة الصناعية والحاجة إلى أسواق دائمة لتصريف الإنتاج. وعلى غرار الاستثمار ، يقوم علم السوق على عقلية المنافسة وطرق الفوز بأفضل نسبة من الجمهور.

ولمَّا كان الاستثمار يعنى بتجويد المُنتَج وتحقيق أفضل معيار نوعي ، فوظيفة علم نفس المستهلك دراسة رغبات جمهور المستهلكين وحاجاتهم وأذواقهم وظروفهم وبيئاتهم الطبيعية والاجتماعية ، واستنتاج معدل عام على شكل توصيات ومكملات يتم مراعاتها في مرحلة الإنتاج أو التسويق ، لتحقيق أفضل مردود جماهيري.

لسبب أو لغيره ، تأخر دخول فن السوق ضمن متطلبات الإنتاج العربي. وعندما فطن المعنيون لذلك ، بقي علم نفس المستهلك غائبًا أو متخلفًا ، ولا مجال لمقارنته بالتجارب الغربية.

مبدئيا ، ثمة فجوة زمنية بين الغرب والشرق ، لامجال لتجاوزها ماديًا أو معنويًا.

الأمر الآخر والأهم ، أن المنتج الغربي هو منتج عالمي ، يتجه إلى سوق عالمية. بينما الإنتاج في بلادنا لا يكاد يغطي السوق المحلية ، ولهذا مردود على الاستثمار الإنتاجي والتسويق. وقد يطمئن المنتِج المحلي لكونه يتعامل داخل

السوق المحلية التي يعرفها ولا يلزمه إضافة نفقات جديدة تحت بند التسويق ودراسات علم نفس المستهلك.

وسوف يمر زمن طويل ، قبل أن يفطن لخطأه المريع ، وربما بعد خسارة مشروعه وخروجه من سوق الإنتاج. وهي من عوامل فشل التجربة الاقتصادية الإنتاجية في بلادنا ، وعدم قدرتها تجاوز السوق المحلية ومنافسة المنتج الأجنبي، وعجزها عن الاستغناء عن دعومات الدولة أو حضانة شركات أجنبية كبرى.

يشكِّل علم السوق وعلم نفس المستهلك اليوم جزءًا من الثقافة العامة، أو الثقافة الشعبية ، في الغرب. ويتم تعليمه في بدايات الحياة المهنية وأساليب حصول الأفراد على أفضل فرصة عمل ، باعتبار أن جهد العامل وقدراته المهنية هو السلعة، الباحثة عن أفضل مجال لاستثمارها وتسويقها في النظام الاقتصادي.

هذا التطور الثقافي العام، جعل مفاهيم علم السوق ودراسات علم نفس المستهلك ضرورية للتطبيق في غير القطاع الاقتصادي ، سواء في مجال السياسة أو الدين أو قطاع الثقافة والأدب.

وتخصص الحكومات ميزانيات خاصة للترويج لسياساتها وبرامجها الحكومية والسياسية داخليًا وخارجيًا.

وفي الفترة الأخيرة عنيت مؤسسات دينية باعتماد نظام السوق وعلم نفس المستهلك أساسا في الترويج لعقائدها وتوسيع جماهيرها وقيادة حملاتها التبشيرية، سيما بعد اندلاع ثورة الإنترنت.

ولاحظ المعنيون أن تأكيد جماعات القاعدة وداعش المركّز على الترويج والدعاية لنفسها عبر الإنترنت ، واعتبار ذلك أحد عوامل نجاحها واستقطابها الشباب من عمق بلاد الغرب. وكان لتنظيم داعش أمانة خاصة معنية بالإعلام الإلكتروني وإنتاج أفلام الدعاية والترويج، ونقل الأخبار.

هذا التطور الكبير حسم مسألة ريادة الغرب الحضارية، ليس في الاقتصاد، وإنما في السياسة والثقافة والدين عامة.

ناهيك عن الإمكانيات الإعلامية والفكرية التي يدخل فيها المقروء والمسموع والمرئي، الكتب والمنشورات والأفلام والبرامج والألعاب.

ويمكن ملاحظة أن ما يسمى بمواقع التواصل الاجتماعي [يوتيوب، فيسبوك، تويتر، وما يظهر لاحقًا...]، هي فرص جديدة للترويج الإعلامي والإعلاني لمنتجات وأفكار ورموز غربية، سياسية واقتصادية ودينية، مباشرة وغير مباشرة.

وأن النجاح الذي تحققه البرامج السياسية والثقافية الغربية خارج حدودها، إنما يعود بدرجة كبيرة لآثار سياساتها الإعلانية التي تتخلل كل جوانب الحياة الاستهلاكية العامة. بل أن الكثير من مواد المساعدات والمعونة الدولية تحمل رموزًا أو ماركات إعلانية مركبة لا تتصل مباشرة بالسلعة.

أخيرًا... تكرر الحديث عن الغزو الثقافي من قبل بعض المفكرين، ولم يرد الحديث عن الغزو الإعلاني الأجنبي، وليس الإعلامي فحسب.

وللأسف لم تحظ هذه الدعوات بالاهتمام، بل أضعف الاهتمام، لا رسميًا ولا شعبيًا. وسعى البعض لاعتبارها دعوات (قومية) للانغلاق، للامعان في تسفيهها ومصادرة الهوية الوطنية والسوق المحلية لترويج الدعايات والمنتجات الأجنبية، وقتل بوادر روح الإبداع والإنتاج الوطني.

في عموم الأفلام الأمريكية تتكرر لازمة كأنها جزء من هيكلية العمل هي [العلم الأمريكي، عبارة سي آي أي أو أف بي أي، والبطل الأمريكي المنقذ]. وهو ما يتكرر بشكل أو آخر في الألعاب الإلكترونية وأفلام الكارتون، وحتى في مجال النكات والضحك.

ولا يكاد صغير أو كبير اليوم من مستهلكي الأفلام والألعاب والمنتجات الحديثة

يجهل صورة العلم الأمريكي أو رموز الشرطة والمخابرات الأمريكية، بينما يجهلون صور أعلام بلادهم ويمقتون الإشارة لشرطة ومخابرات بلادهم.

هذه الملاحظة أكثر أهمية عند الإنسان العربي الذي يمقت وينفر من كل ما له علاقة بالشرطة والمخابرات والاستخبارات العربية.

والسؤال هنا : لماذا لم تهتم الحكومة العربية في التقرب من المواطن واكتساب ثقته ؟... ما سبب عدم الاهتمام بتحسين صورة الدولة وتطبيع العلاقة بين المواطن والمؤسسة الأمنية؟...

الخطوة الأولى على طريق التحضر والتمدن هو مساعدة الفرد للتكيف مع مؤسسات الدولة، ومعالجة أزمة التغريب والخوف وعدم الثقة...

لقد جاءت الدولة العربية بعد قرون طويلة من خضوع العرب للسيطرة الأجنبية وأساليبها المقيتة في البطش والجباية والتجنيد، وكان أولى بالحاكم والمسؤول العربي معالجة الصدع واستعادة الثقة والأمان بين العربي والدولة باعتبارها تخدمه وتمثله.

لكن المؤسف، أن يقيم الحاكم العربي سلطانه على أساس الخوف، مبتدئا عهده بالبطش وحملة اعدامات، وينشر صوره بالبزة العسكرية والجبروت، لتكون رسالته الشخصية لكل فرد.

عقدة العسكرتاريا الحاكمة لا تعني حرفيًا بتسلم أفراد الجيش للسلطة، وإنما انتهاج أساليب النظام العسكري في الإدارة والحكم.

هذا الحديث لا يعني اختصاص العرب بعقدة العسكرة والرعب دون سواهم.

فالنظام السياسي في كل مكان كان عسكريًا متعسفًا حتى فترة ما بين الحربين من القرن العشرين. وكان الملوك والرؤساء يجمعون بين السلطة المدنية والعسكرية في آن.

لكن السؤال هو سبب اجترار الحُكَّام العرب المعاصرين تقاليد الدولة القديمة، وإعراضهم عن تقاليد الدولة المدنية الحديثة. وسبب اعتماد الرعب والرهبة قاعدة للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، بدل العلاقة الإنسانية المبنية على الثقة والطمأنينة بين الراعي والرعية. والنتيجة، أن المسؤول الحاكم بالرعب والرهبة والقوة، انقلبت عليه اللعبة، وأصبح هو ضحية الرعب وعدم الثقة من قبل المحكومين.

ولماذا لا يتعظ المسؤول من حوادث التاريخ السياسي، ومن قصص ملوك بيزنطة وفارس وصدر الإسلام الذين قتلوا بأيدي مواطنيهم؟. ناهيك عن الآثار النفسية والاجتماعية والسياسية لسياسة الخوف ودورها في تمزيق المجتمع والوطن، وجعله فريسة للسيطرة الأجنبية.

ثمة ضرورة ملحة لاستعادة الثقة بين الناس، وبينهم وبين السلطات، وثقة الفرد بنفسه.

انعدام الثقة هو الفراغ الارتكازي الذي ينسف كل كيان الشخصية.

ونعرف اليوم بشكل أفضل، معنى شخص مهزوز أو متذبذب أو حتى خجول.

غياب الثقة داخل العائلة والجماعة والمحلة ينسف القاعدة الضرورية لبناء عائلة ومجتمع متماسك. غياب الثقة والأمن بين الفرد والمؤسسة ينسف قواعد الانتماء والمواطنة والوطنية، ويتحمل المسؤول والحكومة مسؤولية إعادة بناء الجسور والروابط النفسية والاجتماعية بين المؤسسة والمجتمع، بين صاحب الإدارة ومادة الإدارة.

وبغير ذلك تتحول البلاد إلى سلسلة من زنازين وسجون، يسجن كل مسؤول داخلها نفسه، كما يسجن كل مواطن نفسه فيه خوفًا من جاره وحكومته.

واليوم انتشرت موضة جديدة هي الحراس الشخصيين حول البيت والسيارة وداخل حجرة النوم. لكل مسؤول وسياسي ونائب طاقم حماية وحراس

شخصيين. لكل زعيم عشيرة أو طائفة أو رجل أعمال طاقم حماية مسلحة وحراس شخصيين.

والسؤال هو : عندما يفتقد رجل الدولة الشعور بالأمن ويستأجر لنفسه حماية خاصة، فكيف يشعر المواطن العادي بالأمن، وإذا كانت الحكومة عاجزة عن توفير الأمن للمواطنين، فكيف تستطيع توفير الأمن الوطني والقومي. وما هو مبرر وجودها عندها، ولماذا يدفع الناس الضرائب لحكومة لا توفر لهم الأمن والخدمات الأساسية.

وما الفارق عندها بين حكومة تسرق شعبها، وبين احتلال أجنبي يسرق البلد؟

obeikan.com

هل الديمقراطية كلمة عربية؟ !

"كلمة (المتحضر) إذن لغو ، لا يضيف شيئًا جديدًا... على العكس تنقل هذه الكلمة إلى حسّ القارئ، تلك الظلال الأجنبية الغربية التي كانت تغبش تصوّري وتحرمني الرؤية الواضحة الأصيلة !" – سيد قطب

•

متى عرف العرب الديمقراطية؟...

هل الديمقراطية مفردة أليفة في لغة العرب أو تقاليدهم أم ثقافتهم؟...

هل الديمقراطية تراث شرق- أوسطي أو إسلامي، وهل هي جزء من برامجهم أو أهدافهم؟؟...

أليس من العجب ما تنضح به بعض وسائل الإعلام والخطب السياسية الدعائية للبعض منذ زمن، وكأن الديمقراطية كانت دائمًا نصا من نصوص (الشريعة) والشرعية !... ومنذ متى كانت الديمقراطية باب الشرعية في العرف السياسي العربي؟...

لماذا تكتسب الأشياء معنى بعد فقدانها ، فيرتبط استذكارها بدافع التظلم والشكوى؟... فيكون استخدامها سلاحًا مغرضًا لإدانة الآخر ، ووسيلة لتمزيق المجتمع ، وأداة سياسية رخيصة لتحقيق أغراض شخصية أو فئوية بحتة لا أكثر؟ !...

إن السؤال الذي ينبغي على كل فئة ترفع مزاعم الديمقراطية، أن تجيب نفسها عليه... هل سبق لها اعتماد الديمقراطية في برامجها الاجتماعية التثقيفية؟... وهل كانت هدفًا ومطلبًا سياسيًا في نشاطها السياسي المعلن؟... أم أنها مجرد ورقة سياسية رخيصة تمَّ اكتشافها مؤخرا ، لتسلق سُلم السلطة في ميكافيلية

obeikan.com

مقينة، تعمل باتجاه واحد، مثل كل شيء في تراثنا !؟...

أولاً : إن الشرعية الوحيدة التي تدين لتراثنا العربي قلبًا وقالبًا، طريفًا ومتلدًا، هي العنف بكل أشكاله، سواء كان عنفًا اجتماعيًا، سياسيًا أو ثوريًا.

وكل الأنظمة والحكومات التي سادت الشرق الأوسط منذ القرن السابع الميلادي حتى ثورات الربيع العربي قامت على العنف والاستبداد، واستمرت به. والقرار العربي تاريخيًا هو الذي يأتي من فوق ويفرض على الما دون بالقوة، مثل أمر سماوي يحمل توقيع صاحب الجلالة والمعالي.

ثانيا: سِجلُ الأدب العربي السياسي والاجتماعي والثقافي، يؤيد شرعية الأنظمة والحكومات والديانات والسلطات العنيفة على مدى التاريخ، ولا توجد أي دعوة أو شكوى مظلومية باسم الديمقراطية. فما هي المرجعية التاريخية والتراثية للبكائيات المتأخرة، علما أنها لا تصدر من قاع الجماهير الكادحة وإنما من أرباب السلطة وأدعيائها عقب فقدانها الصدارة.

ثالثًا : إن مزاعم الديمقراطية والشرعية ومطالباتها، لا تحتكم للوسائل والأساليب الديمقراطية المتعارفة في القاموس السياسي في بلادها الأم (الغرب الأوربي)، وإنما هي أكثر التصاقًا بلغة العنف اللفظي والمادي ودعوات التهديد والتحريض والتكفير، ولا تتورع عن استخدام المرتزقة وتعددية الأساليب التي تجعل من مجرد التظاهر أو الاعتصام محض واجهة دعائية إعلامية، لتغطية حملات الإرهاب والجريمة المنظمة الفاعلة من وراء ذلك على أرض الواقع.

رابعًا : الديمقراطية كحركة اجتماعية ومسلك تربوي، تنبع من الحراك السياسي الوطني الداخلي، لا تسمح أن تجعل من الجماهير البسيطة ومن مصالح بلادها مطية، لمصالح خارجية إقليمية أو دولية. فلا يكفي أن تأتمر بأوامر الخارج وبرامجه، وإنما تستند إليه وتتوجه إليه بالدعوة العلنية للتدخل في شؤون البلد الداخلية، خدمة لأطماعها في السلطة. ويأتي التقاء المصالح

الغربية في المنطقة مع بعض جهات خليجية إطارًا لدعم صدارة (جماعات) الإسلام السياسي في قيادة البلاد العربية ، لمرحلة ما بعد الأنظمة العسكرية والقومية ، كما حصل في العراق وتونس وليبيا ومصر ، ويجري العمل له في سوريا وبإشراف التحالف الأميركي الخليجي دائمًا.

فإذا كانت الديمقراطية – والديمقراطية فقط – هي ما يقض الضمير الأميركي والبريطاني ، فلماذا يستمر سكوتها على غياب الديمقراطية لدى حلفائها الاستراتيجيين في منطقة الجزيرة والخليج العربي ، وتصم آذانها عن ممارسات الاعتقال السياسي واضطهاد حقوق المرأة وقمع الأقليات الدينية والعرقية ، وغياب الرأي الآخر ؟.

ولماذا تتجاهل – سياسيًا وإعلاميًا – استشراء العنف الداخلي والفساد السياسي والتجاوزات العنيفة على حقوق الإنسان والمرأة والأقليات في العراق ومصر وسوريا. فحرص (! !) أميركا وبريطانيا في مصر والعراق وسوريا وغيرها يجب أن يكون متناسبا في كل بلدان العالم ، وليس البلدان ذات الأصول العلمانية والسياسية (السابقة) التي لا تدور في فلكه.

مما يجعل الديمقراطية المزعومة مجرد أداة لاختراق تلك البلدان والتخلص من أنظمتها (غير المتواطئة مع الغرب) ، وتنصيب حكومات كاريكاتورية هزيلة – باسم الأغلبية الدينية – لا تملك من أمرها خيرًا أو شرًّا ، غير استدرار المناصب والمال العام ، والإيغال في افقار وإذلال شعوبها.

خامسًا : أصعب المفارقات في تاريخنا السياسي الحديث هي مفارقة الإسلام والديمقراطية... فالإسلام باعتباره ترجمة سياسية لتقاليد القبيلة وعاداتها الاجتماعية وقيمها المتوارثة ، لا تسمح بالخروج على سلطة الأب وشيخ القبيلة وزعيمها ، وتعتبر سلطة الأب والشيخ – البطرياركية – مصدر الزعامة الشرعية الوحيد ، وكلمتها هي القانون.

تحفل النصوص الإسلامية بمفاهيم طاعة أولي الأمر بحسب التدرج التنازلي بدء من [الله- الرسول- الحاكم- الأب والزوج]، وتقرن الخروج عن طاعة أي منهم بمعصية الخالق.

علمًا أن الإسلام عمومًا وتفصيلا يدخل في باب الأحزاب الراديكالية المتطرفة، ويعترف بالعنف الثوري وممارسته المباشرة دون رجوع لمصدر قرار أو سلطة أو حكومة، وهو ما يجري اليوم من قبل جماعات الإسلام السياسي على اختلاف مسمياتها.

ومن تلك النصوص الخطيرة [من رأى منكم منكرًا فليغيره... بيده أو بلسانه أو بقلبه] !... ومصدر الخطورة ليس مجرد الاحتمال الأول، وإنما اعتماد الجميع عليه وتجاهل ما سواه، وهو العنف الثوري في القاموس السياسي الحديث أو الفوضى الأناركية.

إن الشعب هو مصدر السلطات في النظام الديمقراطي.

أمَّا في الإسلام، فإن الله هو مصدر السلطات، ويتجسد الله في نصوص القرآن، وهذه النصوص تنقسم إلى ناسخ ومنسوخ، وتتعدد التشريعات وتتضارب، لكن السائد منها عمليًا هو ما ارتأته جماعات السلفية المحتكمة لفقه ابن تيميه (القرن الرابع عشر الميلادي).

وهي تتمثل اليوم في الوهابية والإخوان المسلمين ومختلف الجماعات الإسلامية المتفرعة عنها ومنها تنظيمات القاعدة، والتي تدخل جميعًا تحت باب الإسلام السياسي، أي الجماعات الساعية للسلطة والحكم كهدف أساس لعملها، بينما يجري تبرير أطماع الحكم بأنه وسيلة لفرض الشريعة وتطبيق الحدود !.

تطبيقات الشريعة والحدود الإسلامية ترفض وجود (المختلف) في الدين أو المعتقد أو الرأي، وفي نفس الوقت (تفرض) على عموم أفراد المجتمع من سن الثالثة (عمر الطفولة) الالتزام بتطبيق مظاهر فروض الشريعة الإسلامية،

والتي أضافت لها السلفية الوهابية الالتزام باللباس الإسلامي [الحجاب للمرأة والدشداشة واللحية للرجل].

وبهذا يكون تحت طائلة التهديد المباشر كل من : [الجماعات الدينية التي لا تدين بالإسلام ، الجماعات الإسلامية التي ليست على مذهب السلفية الحاكمة ، جماعات العلمانيين ، والليبراليين ، والوجوديين ، والأناركيين ، واللا دينيين ، إضافة جماعات المجتمع المدني المعاصرة من حركات جندرية تطالب بحقوق التكافؤ والمساواة والمعاملة بالمثل وحماية القانون].

ومنذ واقع الاحتلال الأميركي للعراق تمَّ ارتكاب مجازر دينية وطائفية وعرقية وحزبية إضافة لارتفاع صارخ في معدلات اضطهاد المرأة واستخدام العنف ؛ مما يشكِّل ظاهرة اجتماعية وجريمة سياسية تواجهها الحكومة المحلية والمنظمات الدولية بتجاهل تام.

إن الولايات المتحدة وبريطانيا وحلفاءها ، قامت باستخدام العنف والجيش والمليشيات والمرتزقة (الأجنبية) والإرهاب (الدولي) ، ومختلف الأساليب العنفية ومنها المحركة دوليًا لتغيير الأنظمة في كل من افغانستان والعراق وليبيا وسوريا. مما أدخل المنطقة حمامًا ساخناً من العنف الداخلي والإقليمي ، تغطية لبرامج تدمير الهويات المحلية الأصلية وتغيير جغرافيا الموازنات الدمغرافية والأثنية في الشرق الأوسط.

وإزاء انعدام عوامل الامن والاستقرار يستمر تجنيد المرتزقة – بمزاعم إسلاموية – ودعم أجندة إرهاب الأهلين ، خدمة لتحقيق المخطط الأمريكي الجديد في الشرق الأوسط (الكبير) ، وذلك باستخدام ورقة الدين هذه المرة [من المغرب إلى الهند].

سادسًا : إن الحاجة ماسة اليوم ، ولغرض فهم ما يجري في بلادنا ، أن يجري الفصل تمامًا بين الديمقراطية الغربية عبر تاريخها وتقاليدها الاجتماعية

والثقافية العريقة وثمارها السائدة في مجتمعات الغرب (في المجتمع قبل الحكم)، وبين الديمقراطية ضمن تسويقها السياسي المتأخر للعرب ، وعدم انتظار حصول معجزة، تزاوج بين العقلية العربية القبلية وبين المدنية الأوربية في يوم أو سنة أو حتى أكثر من عقد – كما في المثال العراقي –. فما زالت جذور العقلية البدوية والقبلية هي المتحكمة في حياة العرب الاجتماعية اليومية وقراراتهم السياسية. وما تعيشه مجتمعاتنا اليوم من انتكاسة ثقافية وردة فكرية واجتماعية، لهي أفضل دليل على عجز العربي عن التحرر من بداوته.

لقد ارتبط دخول معالم الحداثة والمدنية الغربية في بلادنا ، بظاهرة الدولة المدنية في مرحلة ما بين الحربين من القرن الماضي ، وظهور أنظمة وحكومات علمانية طبقت مشاريع تنمية اجتماعية دعمت تحديث مجتمعاتها. لكن تراجع الأنظمة العلمانية والثورية ، وصعود الإسلام السياسي في ربع القرن الماضي الأخير ، خدم صعود الأنظمة الخليجية التي تحولت – بحسب دوران رأس المال – قِبلة العمالة والثقافة العربية على حدّ سواء ، إلى جانب استقطاب الشركات العالمية العابرة للقارات.

لقد حققت الناصرية اكتساحًا عربيًا في عهد عبد الناصر ، ومثل ذلك يقال عن القومية ومداراتها ، التي تركزت في بلدان الشمال [مصر ، ليبيا ، الجزائر ، سوريا ، لبنان ، العراق]. أما المرحلة الحالية فهي تشهد سيادة السعودية وإمارات الخليج ذات الطابع القبلي والأطر الدينية التقليدية ورؤيتها الانتقائية في التعامل مع الغرب وخدمة برامجه.

ومن بين تلك البرامج؛ الديمقراطية... وهنا يأتي السؤال : كيف يعقل أن يكون الخليجي عرَّابًا للديمقراطية في بلدان الشمال ، بينما يرفضها على نفسه ؟... والسؤال الثاني : لماذا ينبغي علينا أن نأكل ونشرب ونلبس ونفكر كما يريد لنا الآخرون ، أمريكان وخليجيون ، وليس كما نريد نحن ونختار ، أم أن للديمقراطية هذه معنى آخر !...

أطفال العولمة

أطفالكم ليسوا لكم – جبران

أي امرأة اليوم، بغض النظر عن عمرها ومستواها الثقافي وموقعها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، تختلف أوضاعها وظروفها عن الصورة التقليدية للقرن الماضي، بل عن صورتها الأخيرة في ظل مفاهيم الحداثة.

فقد ساهم النمو المضطرد في المنتجات الاستهلاكية وارتباطها بثورة الاتصالات التكنولوجية [التلفزة الفضائية ومواقع الاتصال الاجتماعي والهواتف النقالة] في إخراج الإنسان من بيئته المحلية المحدودة [العائلة والمحلة والمدينة] ليكون جزءًا من عالم بلا حدود، مما انعكس في فصل تفكيره عن محيطه الاجتماعي وزيادة معدل شعوره بالاغتراب والعزلة واللهاث وراء سراب يزداد هروبا كلما تقدمت منه أكثر.

الإنسان الطبيعي، التقليدي، شأن أي مخلوق يولد وينشأ في بيئة حضانة اجتماعية نفسية داخل عالة نووية، هي جزء من عائلة أكبر، تنتمي إلى دائرة قريبة تتوزع في أطراف المدينة أو جُملة من مدن البلاد مشكلة محيطه الاجتماعي وانتمائه الثقافي والوطني.

في هذه الحاضنة يتكون الطفل/ الإنسان نفسيًا وتربويًا وماديًا عبر خطوط العائلة والمدرسة مترسمًا طرق مستقبله وبناء كيانه المادي وتخصصه المهنى وشخصيته الثقافية. هذا النظام القائم على المواءمة بين أصول التراث ومناهج الحداثة التنويرية هو الذي أنتج جُملة الأجيال التي ساهمت في انجاز التحول الاجتماعي المدني للقرن العشرين، وبناء صروح المؤسسات السياسية والاقتصادية والتعليمية، التي هيأت بلداننا للوقوف والمشاركة في عالم التحالفات والمواثيق والعقود العالمية.

التغير الذي حصل في الرُبع الأخير من القرن العشرين وتزايد حجم السلع الاستهلاكية والغزو الثقافي بدء من النظم والأساليب الصحية لرعاية الأمومة والطفولة إلى مفردات التعليم وأساليبه والتغير المبالغ في مفاهيم العمل والحياة والنجاح المهني وانعكاساتها على العلاقة بالمال والمرأة والذات. مما انعكس مباشرة على الأُطر والعلاقات العائلية والمجتمعية ، وصار الفرد المتحلل من حاضنته التقليدية ، يمثل إلى حاضنة أثيرية تعويضية تشاركه في الأهواء والنزعات الاستهلاكية الحديثة ممثلة بالكروب الإلكتروني أو الاستهلاكي، التي لا تتعدى معايير الانسجام داخلها علامة اللايك.

فالطفل الذي لم يستكمل متطلبات تكوينه النفسي والتربوي والاجتماعي داخل العائلة والمجتمع المحلي ، يبحث عن تعويض لمجمل ما ينقصه ويقلقه في مواطن مجهولة غير موثوقة ومأمونة الاتجاهات والشعارات.

فلا غرابة أن يكون القلق والأزمات النفسية والمالية المتصلة هو الطابع والواقع العام لأفراد العوائل الإلكترونية ، وبشكل فتح أبوابًا جديدة في دوائر الصحة العالمية ودوائر البوليس للتعامل من إفرازات المجتمع الإلكتروني.

لقد تسببت التغيرات الاقتصادية الكبيرة خلال ثلاثينيات القرن الماضي في تصاعد موجة الكآبة وتشخيص الشعور بالاغتراب كحلة مرضية ثقافية.

وما يحدث اليوم من ثورة ثقافية إلكترونية هو أقوى وأخطر من موجة التحولات الاقتصادية التي يمكن رصدها والتحسب لها بالقلم والورقة ، ولا تخرج في أساسها عن المحددات التقليدية للمكان والزمان. تلك المحددات التي ينعدم وجودها في السراب الإلكتروني ومتاهاته.

ورغم أنه لم يمضِ وقتٌ طويلٌ نسبيًا على سريان الشبكة الإلكترونية ، إلا أن آثارها السلبية والتدميرية أذهلت الدوائر المعنية بالبحث والرصد والمتابعة في مجالات الصحة والاجتماع والجريمة.

فقد حققت معدلات الكآبة والانتحار والجريمة قفزات عالية غير مسبوقة من جانب ؛ ومن جانب آخر تشكِّل ظاهرة الفقدان وضياع الأشخاص دون إنذار أو أثر يساعد على معرفة مصائر الأفراد حالة غير مسبوقة.

وبينما تعمل دوار الصحة على التعاطي التقليدي مع الحالات المحالة إليها، فإن العبء الأكبر للتحول الإلكتروني يقع على كاهل دوائر البوليس والعمل على احتواء الإفرازات الجرمية للإنترنت على الصعيد الاجتماعي ؛ أي أن هذا لا يشمل الجوانب الأمنية والمخابراتية للشبكة.

إن حوالي نصف سكان العالم، وثلاثة أرباع البلدان والمجتمعات تضررت أضرارًا مباشرة وفادحة من جرَّاء ذلك. يأتي في مقدمتها البلدان المتخلفة وما كان يدعى بسكان العالم الثالث. أما المجتمعات الأوربية والغربية عامة، فهي أقل تضررًا نسبيًا، باعتبارها جزء من حاضنة المنتج الإلكتروني، وأكثر أهلية حضارية على التعاطي معه ؛ مع ملاحظة مهمة جدًا ، هو محدودية الاستشراء والاستهتار في التعاطي مع الشبكة وانحسارها في المجالات المهنية ، الاقتصادية والأكاديمية الخاضعة لنظام المؤسسات، أكثر من الأفراد.

وفي المجتمع البريطاني مثلاً، يمكن ملاحظة أن المهاجرين من الجيل الثاني والثالث أكثر استهلاكًا وانغماسًا في الاستهلاك الإلكتروني بمجالاته الثلاثة من أبناء الإنجليز أنفسهم. فالتقنين والتنظيم والسيطرة والعقلانية لدى الشخصية الأوربية ما تزال من سماتها الرئيسية، مقارنة بغير الأوربيين الدين يدفعهم الشعور بالتفاوت الحضاري لمحاولة غزوه ومنافسته استهلاكيًا.

•

مغزى الإنترنت

الإنترنت، مثل الثورة الصناعية والتنوير والحداثة والعلمانية والدولة المدنية، واحدة من المنتجات الغربية، وبالتالي، فإن مغزاها والموقف منها ينبغي أن لا

يبتعد عن المغزى والموقف من غيرها. ومع مرور ثلاثة قرون على الثورة الصناعية والحداثة الأوربية، فإنها ما زالت بعيدة وغريبة عن مجتمعاتنا، رغم أهميتها الكبيرة في إحداث النقلة الأساسية لحياة البشر.

يترتب عليه، أن مغزى النت والنظرة إليه في الغرب، تختلف عن مغزاه والنظرة إليه في بلداننا. ففي الغرب يخضع النت للمؤسسات الكبيرة والدولة وقطاع الاقتصاد والسياحة والتجارة، بينما يشكِّل الأفراد والقطاعات غير الرسمية أكبر المتعاطين معه في مجتمعاتنا.

وما زالت مؤسسات الحكومة حديثة العهد وعاجزة عن تسخيره لخدمتها أو خدمة المواطنين. ذلك ما زاد من ضعف مؤسسات الدولة أمام مواطنيها، وسهَّل من هزيمة مؤسساتها وانهيارها في احتجاجات الربيع العربي [٢٠١٠-٢٠١٣م].

نظام النت هو مادة مهنية لخدمة الدولة وتطوير عمل مؤسساتها وتحقيق أهدافها وذلك في شقيها السياسي والاقتصادي، ولضمان سلامتهما وحسن أدائهما يدخل الجانب الأمني البوليسي كذراع أساسية مباشرة في العمل. وهذا يرتبط بالفكرة الجوهرية والمغزى الرئيسي لاختراع الكمبيوتر في القطاع العسكري والخدمات الحربية. وأن تسخيره في المؤسسات الاقتصادية والتعليمية أساسًا [بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية] لا يخرج عن الغرض الأساسي منه.

من هذا المنظور أيضًا، وفي حدود الفلسفة الرأسمالية، كانت شركة النت شركة احتكارية قابضة، ورغم تعدد شركات النت الباطنية المتداخلة والمتفرعة من بعضها، فإن قبضة الشركة الأم ما زالت هي المركزية المتشددة، والتي تضيف من وقت لآخر، مواصفات جديدة ومتجددة للسيطرة على حقوق الملكية والتصرف بخدمات وأجهزة النت.

وإذا كان الكمبيوتر الأساس خاضعًا لوزارة الدفاع، فإن خدمات النت تخضع اليوم، وحسب الأمن القومي الأمريكي، لسيطرة المخابرات المركزية

الأميركية. وإذا كانت الأخيرة المحرك الأساسي في الهيمنة الأميركية، فلا شك أن جانبًا كبيرًا من مشاريع الهيمنة يعتمد على ما توفِّره شركات النت من تسهيلات وخدمات خارقة في هذا المجال.

•

لقد لعبت هوليود دورًا بارزًا في أمرين :
أولهما تصدير الثقافة الأميركية [مفاهيم وقناعات وأنماط سلوك].
وثانيهما ترسيخ احتكار الفن والمرجعية الثقافية ، وقد نجحت بشكل كبير في تحقيق أغراضها ، وتصفية السينمات العالمية المتعارفة السابقة من روسية وفرنسية وألمانية واشتراكية وإيطالية ، ناهيك عن المرجعيات الثقافية لباريس ولندن وموسكو وغيرها ، لصالح مرجعية أمريكية في الثقافة والفكر والسينما والموسيقى ، وبحيث تحول الأميركي المحلي إلى ظاهرة عالمية ، وانحسار الثقافات المحليات الأخرى.

ويعتبر مؤرخو العولمة ظهور مايكل جاكسون في أواسط الثمانينيات أبرز رموز ثقافة البوب الأمريكي التي وجدت فضاء عالميًا غير مسبوق.

لكن هوليود التي مثلت مرحلة انتقالية مهمة في مشروع الانتشار والهيمنة ، كانت طريقا باتجاه واحد. وكان على المؤسسات الصحفية والبحثية القيام باستفتاءات رأي من وقت لآخر ، لقياس أنماط واتجاهات أفكار وأذواق الناس تجاه بعض المنتجات والظواهر الأميركية، في مناطق متعددة من العالم.

وكانت ثمة ميزانيات أميركية ضخمة تنفق في أصقاع العالم ، لأغراض الدعاية والإعلان وتحسين صورة الأميركي في العالم.

والواقع أنه رغم الحروب والمجازر البشرية التي تكبدتها بلدان أسيوية على يد الأمريكان ، فإن صورة الأمريكي والسلعة الأمريكية والنمط الأمريكي في السلوك والفكر والثياب والطعام هي المتقدمة بلا منافس.

فالدعاية والإعلان جزء من آليات الفكر الرأسمالي الأساسية في كل شيء.
فالفيد–ان، والفيد– باك، هي أهم مميزات خدمة النت.

فلا غرو أن تتراجع أهمية أفلام هوليود ورموزها البطولية إزاء ظهور الأفلام والألعاب والتسالي الإلكترونية وظهور رموز وشخصيات وأفكار وميثولوجيات جديدة، اقتحمت رؤوس الأطفال والناشئة والشباب العالمي، وأنتجت جيلاً من ثقافة ولغة وسلوك على درجة كبيرة من التماهي في المنتج الأمريكي ومتطلبات شركات الإنتاج والتوجيه.

فالمنتجات الأميركية، على خلاف المفاهيم التقليدية لعالم الحداثة الاقتصادية الأوربية والصينية، ليست اقتصادية مادية، وإنما هي منتجات ثقافية وسلوكية تتعلق بالسياسة والمعتقد والعلاقات العامة.

بمعنى آخر، إن التبعية الاقتصادية والسياسية وما ترتب عليها من دعوات الاستقلال السياسي والاقتصادي، لا قيمة لها اليوم، في عصر ما بعد الحداثة، أو العصر الأمريكي، الذي اشتغل على التبعية الثقافية والسلوكية للسلعة النمطية ومرتكزات اللاوعي في أرضية القناعات والروابط المشتركة.

الشعار الأمريكي هو : قل لي ما في رأسك، أقل لك من أنت !...

وخدمات الشبكة الإلكترونية وشروط دخولها، تضمن لصاحب المنتج مراقبة واستبيان ما في رؤوس الناس ونفوسهم وحياتهم، عبر مئات الأميال، أينما يكن من الأرض.

أشباح روما تملأ أذهان الناس

ونحن أطفال صغار شنفت أسماعنا أسماء شخصيات ورموز تاريخية مثل عنترة وأبي زيد الهلالي وعلاء الدين وهارون الرشيد وبطولات خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي.

وفي كتب التاريخ والوطنية تقاطرت الرموز والبطولات واتسعت لتشمل رموزًا أجنبية شرقية وغربية فعرفنا كسرى وقمبيز وهرقل وهولاكو ونابليون.

وبتلك الحصيلة التاريخية امتلأت نفوسنا ومشاعرنا وأذهاننا، وكأننا امتلكنا كل مفاتيح المعرفة، وما علينا غير اختطاط طريقنا على هدى أولئك القادة الأفذاذ.

وبعد تلك الدروس والرموز البطولية، يأتي دور الواقع لكسر معنوياتنا وقمع طموحنا والحد من قناعاتنا وتصوراتنا الطوباوية عن المستقبل ودورها البطولي في صنع الحياة المجيدة. وقد نجحت مسيرة التغيرات السياسية والاقتصادية في تحجيم الأحلام والآمال والرؤى المستقبلية إلى نهاية الطرف الاخر من المسطرة، مكتفين بحافة الهامش الباهت من الحياة.

ولكن... فيما تنحدر وتنتهي أمم وشعوب في زوايا الهامش الدولي الراهن، تبدأ في الطرف الآخر جهة جديدة تعيد ممارسة ألعابنا القومية البطولية، مستغلة ظروف الفراغ السياسي والتراجع الفكري والثقافي لملء السوق بمنتجاتها البطولية الإلكترونية.

تمثل الإمبراطورية الرومانية صورة الحلم التاريخي المجيد المداعب للمخيلة الغربية عبر الزمن. وقد حاولت غير دولة أوربية تجربة حظها والدلو بدلوها لبناء إمبراطورية عالمية تمتد خارج نفوذها وتنفرد بالقيادة، قبل أن تصطدم بغيرها وتنكسر وتتضع.

ولعلَّ القارة الأوربية الصغير جغرافيًا قد عاشت أطول فترة وأكثر عددًا من

الحروب البينية بين القرن الثاني عشر والعشرين ، للاستفراد والتسلط دون غيرها. ومن الإمبراطوريات السبع في القرن التاسع عشر إلى إمبراطوريتين في القرن العشرين إلى انفراد الولايات المتحدة الأميركية بالتحكم في السياسات الدولية ، حلم ما يزال يتجدد ويتخذ لبوسا مختلفا والجوهر والمغزى والهدف واحد وحيد لا يخرج عن عقدة البعث والابتعاث المجيد.

ومنذ تسعينيات القرن الماضي والعالم يتمخض بأزمات وحروب وكوارث ، وبلدان تنقلب ودول تتفكك وحكومات تتغير وتبدل أوراقها وشعوب تثور وتصرخ وتعاني كالثور الجريح وهي تتعرض لمختلف أنواع التجارب والسيناريوهات الدولية ، بينما يجتهد منظرو الأمن القومي الأمريكي لابتداع سيناريوهات وأفكار وخطط جديدة يشاغلون بها الشعوب لتأمين أطول مدة وإمكانية لبسط النفوذ والهيمنة.

الإمبراطورية بكلمة واحدة هي فكرة مد النفوذ خارج الحدود الوطنية والقومية ، بدون مبرر غير التلذذ بأوهام القوة والسيطرة. وما من إمبراطورية على مدى التاريخ توسعت وانتفخت ، إلا وانقرضت واختفت من الوجود.

وقد صنع الأكديون في قلب العراق القديم أول إمبراطورية على الأرض قبل خمسة آلاف عام ، فأين هي أكد اليوم !... وتلاهم البابليون والأشوريون والكلدان ، فلم يكن مصيرهم أفضل.

وهو ما انتهى إليه الإسكندر المقدوني ومن بعده روما وبيزنطة ، فكانت النتيجة نهاية مجد أثينا وروما وانقراض بيزنطة لتتحول عاصمتها إلى استامبول. وما مصير الإمبراطوريات العربية الإسلامية والعثمانية غير ما يعيشه العرب والترك من تفكك وتبعية واضطرابات متصلة.

وفي عالم الغرب المعاصر ، كانت بلجيكا وهولندا والبرتغال وأسبانيا والدنمارك وفرنسا وإنجلترا إمبراطوريات عالمية يومًا ما ، وهي اليوم بالكاد تغالب

لتتماسك سياسيًا واقتصاديًا ، فما هو المصير الذي ينتظر الولايات المتحدة وهي تهرب من أزماتها الداخلية وتصديرها خارج حدودها.

يمكن قراءة الحلم الأميركي اقتصاديًا.

عندما هاجر قراصنة المال والذهب إلى العالم الجديد ، وجدوا أمامهم أراضي شاسعة وسلاسل جبلية عملاقة تتوزعها قبائل بدائية قليلة الكثافة هنا وهناك.

ورث العقل الغربي من الرومان الهوس بالعظمة والضخامة والجبروت.

لم تكن للرومان أفكار عظيمة ، ولكن لهم عمران عظيم في بناء المدن والشوارع والطرق والقصور والجيوش الجرارة. وكان العمران العظيم والملكية الكبيرة سبب التفاوت الطبقي بين حاشية النبلاء وأمراء والفرسان ، والأغلبية الساحقة من محدودي الملكية والدخل والعبيد والخدم.

وفي القرنين الخامس عشر والسادس كانت كل الأراضي في أوربا مملوكة ملكية إقطاعية رأسمالية كبيرة للملك والنبلاء والكنيسة. فكان المهاجرون والقراصنة الأوربيون في دأب للبحث عن أراضي كبيرة يستحوذون عليها خارج أوربا ، في أفريقيا ثم أميركا المكتشفة حديثًا.

في الأراضي الجديدة ، يبدأ التنافس لبناء القصور والقلاع وإنشاء مزارع ومصانع كبيرة. ومن هنا يبدأ الحلم الإمبراطوري بالتحقق من فكرة العظمة ، عظمة الملكية ومساحة الأرض وحجم القلعة والقصر وعدد العبيد والخدم، ومن هنا يبدأ طريق الثروة والسلطة.

كانت البداية ببناء مزارع كبيرة ، دعيت في الاقتصاد بالمزارع الرأسمالية ، الحقت بها حركة بناء مصانع رأسمالية كبيرة ، تزيد منتجاتها عن السوق المحلية وتصدرها للخارج ، وعلى الجانب الاخر ، كان الأوربيون في سباق لبناء أكبر سفينة ، ولاسيما في إنجلترا.

سباق العظمة هو الشغل الشاغل لعقول الطموحين والباحثين عن المال والشهرة والنفوذ.

في القرن الثامن عشر كانت أوربا تستنفذ قدراتها الجغرافية والمادية، وقد وضعتها مضاعفات الثورة الصناعية على طريق أزمات حقيقية عصية على الحل، من غير تقديم تنازلات على حساب أحلامها. وقد جاءت أفكار كارل ماركس الاجتماعية الإصلاحية لتضع النار في الهشيم.

فالهروب الجماعي إلى الأرض الجديدة، كما وصفها الإنجيليون، كان بمثابة الخروج من سيناء إلى أرض كنعان الجديدة. وقد منحوا أسماء المدن والمعلمات الكنعانية لمستوطناتهم الجديدة وراء الأطلسي. فالحملة أو الهجرة للأرض الأمريكية تجسدت في الاقتصاد والعمران والدين، والثلاثة تجتمع تحت عنوان المال والنفوذ.

السؤال التالي يتعلق بالجغرافيا أيضًا.

وهو نفس التحدي الذي واجه الأوربيين من قبل. عجز المهاجرون الجدد في تخطي حدود المكسيك والزحف جنوبا. ومن هنا بدأت الإمبراطورية الأمريكية، بعد أن تجاوز حلمها الإنتاجي الاقتصادي طاقة الأسواق الأمريكية، وتعبت من اتفاقيات تنظيم التجارة مع أوربا (الجات)، لتنطلق نحو آسيا وأفريقيا.

وهنا كان على السياسة أن تتولى فتح طرق التجارة، وكان على الجيش أن يلوح بالعصا، ورجال الدين أن يلينوا قلوب السكان، وكان لابد من أزمات وحروب، تكسر الصخر وتلين العناد وتجعل الحاجة للمخلص والمعونة الأمريكية أمرًا واقعًا.

ليس الجيش والدين وحدهما، فحسب، ولكن ثمة الإعلام... الأهم استراتيجيًا.

لماذا لم يخطر للإيطاليين والفرنسيين والروس بناء مدينة إنتاج سينمائي؟ ولماذا ولدت هوليوود في كاليفورنيا وليس في نيس أو ميلانو... هي أيضًا نتاج فكرة

العظمة والمبالغة في البناء والإنتاج والحيازة. حتى تصميم السيارات الأمريكية يميل للضخامة والسعة ومظاهر الترف والعظمة. نفس فكرة [mass, mega] المتمكنة من العقلية الرأسمالية الغربية.

فكرة العظمة والملكية لابد أن تنعكس اجتماعيًا في مظاهر السلوك والكلام والخطاب الثقافي كما هي مشخصة في لفظة المتكبر / المتبختر [arrogant]. فالشخصية الأمريكية تختلف عن سواها ، في طريقة المشي ، اللفتة ، التلفظ ، النظرة للعالم والناس.

إنه السوبر مان أو الوطواط أو رامبو ، ترنتي ، الكابوي ، البك براذر القوي المتفوق الموهوب والذي لا يُقهر أبدًا. والآن على السينما ووسائل الإعلام ترجمة هذه الصورة وتسويقها وترويجها عن أمريكا والإنسان الأمريكي.

لكن النقلة الأكبر في الخطاب الإعلامي السينمائي اقترنت باسم رونالد ريغان صاحب برنامج حرب النجوم في الثمانينيات.

انتهت أفلام الكاوبوي ورامبو ، البطل المخلص والخير المنتصر في النهاية حسب الدراما الأرسطية. وبدأت مرحلة جديدة قوامها سفر الرؤيا الإنجيلي عن الخراب والحروب والأزمات التي تملأ نهاية العالم وتستعجل ظهور المخلِّص بطل السلام والحب الذي يهزم الشرير.

ولم يكن بوش الصغير كاذبا عندما صنف البلدان بحسب رؤيا هوليود الإنجيلية إلى محور الشر ومحور الخير ، معتبرًا أن كل من لا يؤيد الولايات المتحدة يكون من محور الشر.

ما يجري في العالم اليوم هو هرمجدون. ولابد من تخطيط أرضية الصراع والحرب بين قوى الشمال والشرق بحسب سفر الرؤيا.

كثير من أفلاك الكارتون وألعاب الأطفال والناشئة الإلكترونية وغير الإلكترونية المنتشرة في وسائل الإعلام والأسواق العالمية تتبنى قصص التوراة والإنجيل

بتأويلها السياسي الجديد ، والتي سبق أن وصف المهاجرون الأوائل الأرض الأمريكية بأرض الموعد التي منها يخرج مخلص العالم.

وليست ألعاب وأفلام الأطفال فحسب ، عامة الإنتاج السينمائي في هوليود خاضع للرؤية الإمبراطورية الدينية التي حاول تجسيدها قسطنطين الأول تحت شعار : [إله واحد، مسيح واحد، إمبراطور واحد].

السؤال هو لماذا ينبغي أن يقترن الخطاب الإعلامي الإلكتروني الجديد بأدوات الدمار الشامل والإبادة الشاملة ، ويلقن الأطفال لغة العنف ومفردات الإبادة الباردة – أي بدم بارد – [shootimg, killimg, destroying, fire, dead] التي تقتل فيهم البراءة والطفولة وتملأهم بصور الموت والروبوت القاتل ، فلا يكون في عالمهم شيء غير الموت وأمريكا.

لماذا لا يُترك الأطفال خارج ميدان السياسة الدولية والمحلية سواء، لم لا يترك لهم ألعابهم البسيطة وأفكارهم المحلية البريئة بعيدًا عن القصص الدينية الأخروية وصراعات النفوذ والمصالح؟...

بينما ندَّد الإعلام الغربي منظمات حقوق الإنسان بتعليم الأطفال على السلاح أو استخدامهم في الحروب في بعض البلدان، لا أحد يجرؤ على تشخيص ووقف الغزو الأمريكي الإلكتروني لأذهان الأطفال وبرامجهم الاجبارية في بلدان العالم المختلفة (•). وبدلاً من توم وجيري وبباي يحفظ ألأطفال قصص شمشون الأمريكي وفظاظته التي لا تناسب الصغار ولا الكبار.

ومن وقت لآخر ، يصرح أحد الخبراء أن الألعاب الإلكترونية زادت من ميول الأطفال نحو العنف، بلا مجيب.

• **عرضت وسائل الإعلام فيلمًا عن عائلة أمريكية تقيم في واشنطن ، يفتخر الأب فيها بتعليم أطفاله الأربعة على استخدام السلاح ، ويحتفظ في بيته بخمسة عشرة قطعة سلاح مختلفة. وهو من مؤيدي حمل بوش الصغير في حمل الأطفال لأسلحة شخصية. ويبدو أن الفيلم كله دعاية إعلامية للحملة الآنفة.**

وهناك موجة عنف متزايد تجتاح المدارس الأمريكية والبريطانية، ناهيك عن الشوارع والحياة العامة في أوربا ، دون أي إجراء سياسي تربوي إعلامي للحدِّ من السموم الإلكترونية المفروضة على وسال الإعلام.

ولنعد جميعًا إلى قول المفكر برتراند رسل : إن لم يضع البشر نهاية للعدوان، فإن العدوان سيضع نهاية للبشر !.

obeikan.com

هل من مسيح جديد

لا شيء يتكون من ذاته، وبغير قوة خارجية.

من هذا المبدأ ظهرت فكرة الألوهية، المحرّك الذي لا محرّك له، وبالتعبير القرآني البليغ : (لم يلد ولم يولد) !.

كل شيء، كل شخص يوجد/يولد رغمًا عنه.
كل شيء/شخص، يوجد/يولد وقدره معه.

والإنسان يولد بلا إرادته، ويبقى مسلوب الرأي والقرار حتى يبلغ أشده أو يكاد، وعندها يكون قد رضع واقعه وتأقلم وتكيف واكتسب هوية محيطه وحاضنته. ومن واقع مكوناته البيئية يصدر في شعوره وفكره وانفعاله وسلوكه. وفي كل ذلك هو يطبع ويقلد بيئته وسماتها وثقافتها.

هل الإنسان حُرٌّ أم محكومٌ بقدر (•) ؟... هذا أعوص الأسئلة، بل أعوص من الوجود نفسه... إنه سؤال مخيف، مرعب، لأن جوابه معروف مسبقًا. بل أنه من البديهة بمكان أنه لا يستوجب السؤال. السؤال متاهة، كارثة، فضيحة، انتحار. السؤال هو الجواب.

كلهم وقفوا عنده، وما من مخلوق لا يتوقف عنده ولو للحظة، سيما عندما تشتد عليه الضائقة... ربي لِمَ خلقتني ؟!... لماذا ولدتِني يا أمي، ولماذا صنعتني يا أبي ؟... هذا هو السؤال المستحيل. ولأنه مستحيل، لا يجيب عليه المعني به. لا الأب، ولا الأم... إنه سؤال مفعم برائحة الادانة والاستنكار... وفحواه بالأحرى : ما أنا إلا دودة، لا إنسان !، قاله أيوب وداود ويسوع الناصري.

وأصل العبارة : ما أنا إلا دمية تلهو بها أصابعك !...

• كتاب (مخيَّر أم مسيَّر).

وهذا هو سر الأمومة غير المقدسة، هذه هي لعبة الوجود.

منذ أعوامها الأولى تحب الأُنثى أن تمسك دمية في حضنها وتقول لها : طفلي!

عندما كنت صغيرًا ، وعائلتي تقيم في منطقة محدودة السكان ، كنت ألهو مع بنت الجيران ، كنتُ أكبر الفتاة بعام أو عامين ، ولكن اللعب يكون في بيتهم. كانت لعبتي المفضلة هي العجلات ، أو اقتناص الحشرات في البرية ، وكانت لعبتها المفضلة هي الدُمى ، ولديها كثير منها في صورة الحيوانات والدببة... ولكننا عندما التقينا لنلعب سوية ، كانت لعبتها : بيت بيت ، كما نسميها. جمعنا كل أحذية العائلة وصففنا منها حيطان بيت وقسمناه إلى حجرات ، وله باب وسيارة. وفي ذلك البيت تعيش الأم وزوجها وأطفالها. وكانت هي وأنا تينك الزوجان ، وأطفالنا بعض الدُمى التي اختارتها بنفسها ، وكان عليَّ أن أقوم بواجب التبضع وشراء الطعام وأخذ العالة للنزهة.

تلك الدراما الطفولية كانت من تأليفها هي.

وأذكر أنني كنت مُكلفًا بأداء الدور لاستمرار اللعب معها/وهو مبرر وجودي الوحيد في بيت الجيران ، وبغيره سوف أغادر المنزل وأسعى في البرية لوحدي اصطاد الحشرات وأجمع بعض الأعواد اليابسة لمحاربة الهواء واعتلاء أحدها مثل حصان دونكيشوت.

لم تكن تلك لعبة ، ولا دراما أو تسلية ، كانت هي صورة الواقع ، الواقع الذي هو في حقيقته مجرد لعبة أو دراما أو مسرحية ، ولكنه تسلية مرة.

من هنا وصف البعض الحياة بأنها مسرح كبير ، والناس ، كل الناس ممثلون ، مجرد ممثلين ، حتى ولو لم يشعروا أو استنكروا ذلك. وكلنا ، رجالاً ونساء ، نمثل داخل عوائلنا ، بشكل أو آخر. والممثل الناجح هو الزوج الناجح.

والمسرحية الناجحة إلى درجة الإقناع ، هي العائلة الناجحة. ياما قرارات نتخذها بالضرورة وليس بالقناعة. وياما أدوار نؤديها اضطرارًا أو مسايسة

لحركة منطق الأحداث/الظروف، وليس بمحك الاقتناع أو الإرادة.

لهذا أيضًا جرى اختراع صورة العائلة ومنظومة التقاليد، مثل سيناريوهات متوارثة، محفورة في ضمائر الناس رغمًا عنهم، يؤدونها ويعيشون بحسبها لإنتاج مسرحية أو فيلم ناجح وبامتياز، وكل خروج على النص محكوم بمقص الرقابة أو الفشل !.

المشكلة، أن البعض يتماهى في الدور، لدرجة يعتقد أنه كاتب النص، وعندها يعجز نظيره والمجتمع / الجمهور والكومبارس، عن مجاراته والخروج عن أدوراهم التقليدية.

دراما العائلة، مثلها في أي مقطع آخر من حياة الأرض، في المدرسة أو المقهى أو الحكم أو الدين، مجرد أدوار تقليدية مرسومة مسبقا، وعلى الفرد، المجتمع الشاطر إتقان دوره للأخير. لذلك نجحت بعض المجتمعات المتمسكة بتقاليدها كالهنود والمصريين، في اكتساب قدر أكبر من الاستقرار، رغم مشاكلهم الاقتصادية العويصة ؛ بينما تعاني مجتمعات من اضطرابات مستمرة بسب ضعف قناعاتها أو انعدام التقاليد المشتركة الراسخة لديها، وميلها للتمرد وتحدي القدر. وكلما تمرد أحد على النص وحاول تعديله أو إنتاج نص جديد، وقع في حفرة أعمق من السابقة، وكما يقول "علي الشرقي" : غلط يصحح في غلط !.

فكرة الخروج على النص، واستحلال دور المؤلف، كانت مصدر إغراء الفرنسي جان جاك روسو التي أوحت له بفكرة الفرد الحر، ومبدأ إرادة الفرد وحرية الاختيار. ولكنه عند المناقشة ومحاولة تطبيق المبدأ في الواقع، وجدها تهدد المجتمع بإشاعة الفوضى والأناركية، فالبشر مختلفون في خصائصهم النفسية والاجتماعية ومستوياتهم العقلية والثقافية المتحكمة جميعًا في منظومة اتخاذ الفرد لقراراته.

لقد اعتقد روسو في لحظة طوباوية أن البشر أو المجتمع على درجة واحدة راقية من الوعي والإدراك والإرادة، مثل آدم في الفردوس ؛ عندها استدرك وربط الحرية بالالتزام واحترام حدود الآخر، ورأى أن الدولة ضرورة لتحديد الالتزامات/الواجبات، والحقوق/الحريات الفردية.

قبل روسو بكثير، وقف الكاتب التوراتي في الفصول الثلاثة الأولى من قصة الخليقة، أمام إشكالية رسم بورتريه آدم الأول، هل هو مجرد روبوت لحمي يحركه صانعه عن بعد، أم هو حر يصدر عن وعي ذاته.

وللتخلص من فكرة الروبوت/الدمية، جعل الإنسان يتمرد على النص ويرتكب المحظور... ولكن كيف يخطر لصنيعة الرب الحسنة والكاملة أن يتمرد، وأين هو الرب في لحظة التمرد. هنا يجتهد الكاتب، ويدخل عنصرين جديدين في النص، الأفعى : محرك الغواية، وحواء الناقصة الخلق : مطية الغواية.

ترى ما هو موقف الكاتب الفيلسوف العبراني في هذا النص، هل يعتقد أن الإنسان حر، أم محكوم؟ !...

إن تمرد حواء وزوجها على النص، ترتب عليه عقوبة قاسية وحكم تاريخي، هو الطرد من الفردوس وتاريخ من معاناة ومقاساة في كل شيء. فالخروج على النص/القدر الأصلي هو خطية !. وهذا هو أساس الفكر الديني. البقاء داخل النص، الطاعة الكاملة، عدم السؤال واجتناب المناقشة والشك !.

فكرة الخطيئة نتيجة منطقية للخروج على النص/التمرد أو العصيان. والخطية تنتج الإثم ، والإثم ينتج الألم والموت. وهذه هي قصة حياة المخلوقات الأرضية: أخطاء، تمرد، معاناة، مشاكل، آلام، موت وكوارث ومجازر.

عزاء الإنسان الوحيد أن عقله محدود، وشعوره مقيد، ومعرفته قاصرة، ويستطيع إغلاق مداركه واعتزال شبكات الأخبار، ويتجاهل الأحداث، أو يبالغ في الأنانية وحب الذات ولا يكترث لغير نفسه، ولكن حتى في حال الأنانية،

سوف يكون له الألم والموت بالمرصاد !. ولا منجى أو خلاص، الفأر داخل صندوق، والمصيدة فاتحة فاها.

منذ القدم... اكتشف البشر وسائل وأساليب مختلفة للهروب من الحقيقة والألم، عبر تعطيل الشعور أو دفن الضمير، وهي مجرد أوهام ومخدرات يحتال بها البعض على وجودهم الأصلي. هذا المخدر أو الوهم لا يمكنه أن يلغي الرقيب الوجودي عندما ينام المرء، وتنفتح عليه بوابة الأحلام والكوابيس والضمير المقموع.

ان الدين نفسه، في حالات عديدة، هو جزء من المخدر عندما يوهم الفرد بالبراءة أو التقوى ونوال الغفران، رغم أنه يعيش في مستنقع من الخطأ والجريمة. والمقصود هنا، تسويغ الجهل وإغلاق المدارك عن مصادر المعرفة والأخبار.

الدين، هو أول منظومة، أقرَّت بواقع خطية حياة البشر، ووضعت لها علاجًا تخديريًا عبر منظومة (تطهير) من طقوس ومراسيم تعمل، تمثل طريقًا للحصول على الغفران وغسيل الوسخ المستمر. والمستفيد الأول من هذا الوهم هو الإقطاع الكليروسي الذي يبيع صكوك الغفران وفتاوى الطهارة وشرائط الأدعية والتعاويذ والطلاسم بمبالغ نقدية وطقوس عبودية وتبعية مهينة.

لا عذر لك أيها الإنسان !... – (أشعياء بن آموص)

سفر أيوب، هو أقدم نص ديني معترف به من جميع الديانات، وهو نص كامل عن الكمال والألم والحاجة للخلاص، غني بالأفكار والتأملات. في أحد سطوره يصرخ أيوب الصابر : أما من وسيط يضع يده علينا نحن الاثنين !.[•] تمنى أيوب لو أنه لم يولد، أو أنه مات ساعة ولادته وغير ذلك من أفكار وتساؤلات مستحيلة. أما وأنه قد ولد، فهو يحتاج إلى وسيط/وكيل بجمع المتهم بالمدعي

• **سفر أيوب - في كتاب التناخ العبراني.**

في دار القضاء. فكرة الوسيط والوكيل هي ملخص فكرة المسيح اللاحقة: المخلص !.

مثل أي ابن أنثى، وُلِد المسيح وقدره معه. ومنذ صغره عمل أن يكون بارًّا ولا يقرب الإثم ولا يقف في طريق الشر. وفي زمنه، كاد أن يكون الوحيد الذي بلا خطية، ولا غش في فمه. أمر لم يتسن لسواه !.

وهو ما اكتشفه الخُطاة ، الغارقون في الإثم والزيغ والجور ، الباحثون والمحتاجون إلى تطهير وغسيل وسخ. هؤلاء الخُطاة، يدركون أنهم في ضلال، وأنهم هالكون في غيهم، لكنهم اكتشفوا في لحظة، أن يموت واحد عن الجميع، خير من أن يموت الجميع بلا طائل (•).

من هنا اجتمع عليه الخُطاة، وضعوا عليه رداءً أحمر ، وتاجًا من الشوك على رأسه، وأصعدوه على حمار ، وهللوا له وصفقوا وهو يقودونه إلى الجلجاثة... هناك حيث جردوه من ثيابه وجلدوه وعلقوه على خشبة : وكتبوا فوق رأسه ، هذا هو المسيح ؛ حامل الخطايا عن البشر. وحده كان حامل خطايا الخطائين، وكفارة ذنوبهم، الميت من أجلهم، من أجل أن يعيشوا هم ويحصلوا على حياة جديدة ويعيدوا كَرَّة الحياة والخطأ من جديد.

قبل مسيح الناصرة بألفي عام، أي بعد ألفي عام من الطوفان، ظهر سرجون الأكدي ، محمولاً بولادة معجزية وقدر خارق ، ليهزم الشرّ والخُطاة ، ويبني مملكته العالمية العادلة، جامعًا الشرق والغرب والشمال والجنوب تحت سلطته، جاعلاً من أكد المقدسة عاصمة مُلكه وعدله. كانت مملكة أكد أسطورة العالم القديم، حلم وحدة البشر والثقافة واللغة... ومن رحم أكد ظهرت بابل العظيمة التي سوف يستمر صيتها على مدى ألفي عام...

• **أن يموت إنسانٌ واحدٌ فداءً عن الأمة ، خيرٌ من هلاك الأمة كلها - قالها قيافا رئيس المجمع اليهودي قاصدًا يسوع.**

حيث تتعاظم الحاجة إلى مسيح جديد، يغسل خطايا الأرض ويبني مملكة العدل العالمية من جديد...

واليوم، عقب ألفي عام على مسيح الجليل، يتمخض العالم من الألم ووجع الخطايا، مستعجلاً ظهور مسيح جديد، أو طوفان جديد يغسل الأرض ويمسح تاريخ الماضي، ليعيد الزمن/البشر دورتهم/كرتهم من جديد !...

لم يبن مسيح الجليل مملكة أرضية... ولكن بعد ثلاثة قرون منه بنى قسطنطين العظيم إمبراطورية بيزنطة وجعل عاصمتها القسطنطينية/استانبول القريبة من شرق المتوسط، ويجعل المسيحية ديانة عالمية.

حلم إمبراطورية العدل العالمي الموحد توارثت من سرجون الأكدي إلى الإسكندر المقدوني، إلى قسطنطين وثيودوسيوس، إلى بوش الصغير تلميذ بيل غراهام خليفة الكوكيز.

فهل كانت ولاية بوش الابن في رأس الألفية الثالثة، حلم بناء إمبراطورية عالمية مركزها واشنطن، هي كرة الحلم العالمي الإمبراطوري الجديدة...

لماذا تبنَّى خطاب البيت الأبيض فكرة الخير والشر، كما لو كان مسيحًا جديدًا يتوعد بغسل الأرض من الشرور ونشر الخير أو العدل الأمريكي.

يتفق معظم المؤرخين المعاصرين على استعادة بوش الابن الخطاب الديني وفكرة مجيء المسيح الثاني في الخطاب السياسي الدولي وانعكاساته على السياسات العالمية والإقليمية، سيما في الشرق الأوسط، الموطن الأصلي لفكرة المسيح والخلاص والولادة الجديدة.

لقد كان بوش مدفوعًا بقدره الشخصي، وهو يدفع العالم إلى حافة الكارثة.

بل أن اختياره العراق، موطن بابل العظيمة/الزانية بحسب تأويل سفر الرؤيا الإنجيلي تأكيد لوهم الخلاص العالمي على يده.

وما يزال العالم يتمخض بالشر ، مدفوعًا من جوانبه وأعضائه ، لتركيزه في نقطة التوتر التوراتية [بابل– كنعان– آشور] التي يعد باراك أوباما أن تستغرق سنوات طويلة [لقضاء على داعش] ، وأن القضاء عليها لن يكون سهلاً ، ويقتضي تحالفًا دوليًا وإقليميًا كبيرًا ، إنما هو ترجمة لوعود المعركة العظيمة في سفر الرؤيا ، كما تسعى المسيحية الصهيونية لتسجيلها على الأرض ، تمهيدًا للمجيء الثاني وبناء مملكة العدل العالمي الجديدة وعاصمتها أورشليم الجديدة.

obeikan.com

اتحاد أُمم آسيا

في عام ١٤٩٢م تأكد كولمبوس أن الهند الجديدة إلى الغرب من شبه جزيرة إيبريا هي أرض جديدة لم تُعرف سابقًا ، وعلى الفور قامت الملكة إيزابيل بإرسال حملة عسكرية صليبية لاحتلال أميركا الجنوبية ونشر الكاثوليكية فيها ، ممهدة بذلك لبدء حملات الغزو الغربي لبلاد العالم غير المأهولة أو المتحضرة في الجزر البحرية المنتشرة حول العالم ثم أواسط آسيا وأفريقيا.

وكانت لتلك الحملات أهداف ثلاثة مُركبَّة : السيطرة على مصادر المواد الأولية اللازمة لتسيير الملاحة ودفع عجلة الثورة الصناعية ، نشر المسيحية ، نقل ثمار الحضارة والتمدن خارج أوربا.

في ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين كانت معظم مجتمعات آسيا وأفريقيا خاضعة للسيطرة الغربية. وفيما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية انسحبت السيطرة الغربية المباشرة تاركة حكومات محلية تدير شؤون بلادها ، وتتعامل مع الحكومات الغربية عبر اتفاقيات ومواثيق تدعم مصالح الطرفين.

عموم المستعمرات القديمة الحاصلة على استقلالها ، لم تخرج من فلك التبعية السياسية والاقتصادية والعسكرية التي كانت تتحكم بها قبل الاستقلال. وكل ما تغير هو الانتقال من التبعية المباشرة للتبعية غير المباشرة. مما جعل العالم – الثالث / المستعمرات القديمة – ينقسم بين كتلتين كبيرتين ، بريطانية أو فرنسية ، في السياسة والتجارة والتسليح والتبعية الثقافية.

ومع انتقال ميزان القوى الدولية في الخمسينيات إلى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأميركية ، بدأت بعض الحكومات بالانفتاح على أحدهما ، مما أعاد تقسيم المجتمع العالمي في ظل الحرب الباردة ما بين معسكرين [اشتراكي ، رأسمالي] ، وقد زاد هذا من الفوارق والخلافات السياسية والاقتصادية والثقافية

بين أتباع كل خندق.

الخلاصة من هذا العرض، هو غياب مفهوم الاستقلال التام والناجز نظريًا أو ميدانيًا. والدول التي اهتمت به في وقت متأخر، لزمها استكمال مستحقات التحرر والاستقلال الاقتصادي، مما أدخلها في خلاف وأزمات مع المصالح الاقتصادية الغربية الحريصة على تأمين حصولها على مصادر الطاقة بأقل التكاليف. هذا الخلاف بين البلدان الساعية للاستقلال التام وبين الغرب استشرى أُفقيًا للبلدان الموالية للمعسكر الرأسمالي في المحيط الإقليمي المباشر وانعكاساته السياسية والاجتماعية والثقافية ولاسيما بين البلدان العربية والإسلامية، التي جعلت ولاءها الرأسمالي سياسيًا واقتصاديًا فوق انتمائها القومي والديني، ووجدت خروجها على المحيط الإقليمي القاري، أكثر ضماناً لها من التقارب الإقليمي القاري، أو السعي للتحقيق الموازنة بينهما على أقل تقدير.

وفي المجال العربي والإسلامي، على أهميته ومركزيته في المحيط الأسيوي تحديدًا، لم تكن مسميات الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامي غير حبر على ورق، أو أداة رخيصة بيد الرأسمالية الغربية المؤسسة والساندة لها.

والمعنى المباشر لهذا الغياب المؤسساتي والبلداني، يعني تعطيل الشعور القومي والديني عن الفاعلية السياسية. في وقت لم تنفصل السياسة الغربية عن هويتها الغربية والمسيحية في كل مستويات أدائها المحلية والدولية، وإن كانت متسقة في خطاب علماني حضاري منفتح.

في عام ١٩٥٦م اجتمع ممثلو العراق وتركيا وإيران وتم توقيع ما عُرِف بميثاق حلف بغداد، وهو أول تحالف إقليمي إسلامي بين ثلاثة دول إقليمية كبرى. وكان يمكن لهذا التحالف أو الميثاق أن يكون نواة تحالف دولي إقليمي آسيوي، يتبنى خطابًا إقليميًا موحدًا وينتج قوة اقتصادية سياسية ثقافية منسجمة، يكون لها دور مؤثر في حفظ التوازن الإقليمي والاستقرار الدولي في المنطقة، ويجنبها التأثيرات المباشرة للسياسات والصراعات الدولية.

فمن منطلق عقلية الأبيض والأسود، عملت الدعاية المضادة على اعتبار حلف بغداد، ردًا على مؤتمر عدم الانحياز قبل عام منه في إندونيسيا. ومن جهة أخرى كان للصراع الإقليمي العربي حول زعامة المنطقة دوره السلبي المباشر في إفشال كل خطوة ممكنة للأمام، كما هو دائمًا، في الماضي البعيد والقريب والراهن المعاصر.

تم استخدام باندونغ لتدعيم شعبية عبد الناصر وزعامة مصر إقليميًا. بينما دعم حلف بغداد مركزية العراق الإقليمية، وانتهى التنافس السلبي العقيم – بين مصر والعراق – إلى انهيار المحاولتين، وانزلاق الواقع العربي نحو الأسوأ.

فعلى الرغم من تحسن الظروف الدولية عقب الخمسينيات وتطور الإمكانات العربية الاقتصادية والعلمية، وبدلاً من انعكاسها إيجابيًا على الحياة والإنسان العربي، بدأ تاريخ جديد من التطاحن العربي العربي والسياسات التدميرية للحكومات العربية ضد بعضها، وتغذية الأزمات والصراعات المحلية عند الجيران. فكان الهدر البشري والمادي العربي يستهلك الإمكانات المادية والعلمية بدلاً من الاستفادة منها في تطوير معدلات الحياة العربية والارتقاء بالواقع العمراني والحضاري للبيئة والبشر.

وبدءًا من الانعكاسات الدموية لمشروع عبد الناصر الوحدوي على كل من سوريا والعراق والسودان واليمن، إلى مجازر أيلول في الأردن إلى الحرب الأهلية في لبنان ثم العراق، لم تتوقف عجلة الدم والهدر القومي والإسلامي حتى اليوم، ولن تنتهي بسهولة ولا عاجلا كما نوه عنها باراك أوباما.

واليوم بعد انكسار أو انهيار بلدان الشمال العربي [العراق، سوريا، لبنان، مصر، ليبيا] وخروجها من دائرة الفعل إلى المفعول والتابع، انتقل الصراع على زعامة المنطقة للاعبين انتظروا الفرصة طويلاً [إيران، تركيا، السعودية] مؤشرين مرحلة جديدة من الهدر والقهر العربي والإسلامي. ولن تنتهي المرحلة الجديدة دون ظهور لاعبين جدد ومرحلة أخرى من الهدر والقهر.

إن الحل الوحيد ، والطريق السليم للخروج من دائرة التخلف ، وتجاوز صراعات الزعامة العقيمة ، في ظل ظروف بائسة ومخزية ، فلابد لعقلية تجديدية غير تقليدية التفكير والسلوك والإدارة والتخطيط تتولى تحسين مقومات الحياة والمعيشة داخل بلدانها أولاً. ولأجل هذا لا بد من وجود خطاب إقليمي ودولي عام ، يتجاوز العرب والمسلمين لكل البلدان المتخلفة في آسيا وأفريقيا وأميركا الجنوبية ، وبحيث تدعم برامجها الواحدة الأخرى ، والكف عن استجداء أسباب الأزمات السياسية والمسلحة ، والتسابق لشراء الأسلحة لإفناء مواطنيهم.

وكما اجتمعت الشعوب الأفريقية في إنشاء منظمة الاتحاد الأفريقي حققت نجاحًا نسبيًا في تحقيق التنمية الداخلية والاستقرار داخل أفريقيا ، بالاعتماد على إمكاناتها القارية. فإن الوقت قد وشك ، لتفكر بلدان آسيا للاجتماع والتشاور والاتفاق على تأسيس منظمة دولية آسيوية تكون سقفًا أمميًا يجمع وينسق خطابًا سياسيًا وموقفًا آسيويًا مشتركًا على صعد الأمن والدفاع والتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، لتدعيم أواصر التعاون والعمل المشترك في تحقيق التنمية وحل الخلافات سلميًا وبأقل قدر من الخسائر ، على أُسس الإخاء والتفاهم والتعاون الإيجابي.

إن نجاح هذا الاتحاد الأسيوي في تحقيق أهدافه وتطوير برامجه ، سوف يحسِّن مستويات الحياة السيوية ويبعث أملاً جديدًا لأبناء آسيا للاهتمام ببناء وتطوير بيئاتهم المحلية وفتح نوافذ جديدة نحو المستقبل ، بدل أحلام الهجرة واللجوء والعمالة المهينة.

ولعبور عتبة الطريق الجديد ، يلزم الفرد النظر للحياة بعيون جديدة وعقلية جديدة ، والتنزه عن أسباب الخلافات الأثينية والبلدانية والدينية ، وغلق كل ما من شأنه تأجيج العنف والكراهية واستسهال سبل الموت والهدر.

رسالة الحياة هي البناء... وعلى الفرد أن يثبت جدارته !.